المشرق

رسالة عقليَّة

في وجود الباري تعالى وكمالاته واقانيمه

تأليف بولس الراهب اسقف صيدا الانطاكي الملكي

توطئة

ليست هذه الرسالة اول اثر نرويه لبولس الراهب اسقف صيدا. فاننا في الجزء الاول من المشرق (ص٨٤٠) اثبتنا له رسالة ضمَّنها خلاصة معتقد النصارى في التوحيد والاتحاد وصدَّرنا تلك الرسالة ببعض افادات عن المؤلف وتصانيفه الفلسفيَّة واللاهوتية فعليك بالمراجعة. اما الرسالة التي نباشر اليوم نشرها فقد نقلناها عن نسختين احداهما كُتبت سنة ١٧٩٠ تصوخا في خزانة كتبنا الشرقيَّة كتبها سليمان الصبَّاغ. اما الثانية فهي منقولة عن نسخة بخط الطيِّب الأثر ابرهيم بن حنَّا ابن ميخائيل ابراهيم العوده الروم الكاثوليكي الملكي انهَّا في تاريخ ٣ من شهر حزيران سنة ١٨٤٩ نقلًا عن نسخة قديمة تاريخها سنة ١٦٥٠. فقابلنا بين النسختين ودللنا على الزيادات التي في نسختنا بدَين المكفَّفين [ ] وعلى زيادات النسخة الثانية بهلالين « ». ولله الحمد ل. ش

الباب الاول

في وجود الباري تعالى

[الحمد لله الحي الحكيم. والقادر العليم. والجَواد الحليم. والرحمان الرحيم. منشئ كل شيء ومبديه. ومميت كل حي ومحييه. مُبدع المكان وموجدهُ. ومحدث الزمان ومُنفدهُ. الذي لا تحويه الامكنة والاقطار. ولا يغيِّرهُ الليل والنهار. ولا تبليه الازمنة والادهار. نحمدهُ على ما اولانا من جميل آلائهِ. ونشكرهُ على ما انانا بهِ من جزيل نعمائهِ

اما بعدُ فانني لمَّا ابتدأتُ باثبات ابواب تشتمل على معاني مختلفة ليزول بذلك ظن

من يظنُّ بنا ظنوناً لا حقيقةَ لها ويقول بقلَّة خبرته برأينا اننا مُشركون وانَّ لا بصيرة لنا بديننا ولا حجَّة لنا نبرهن بها عن نفوسنا. واذ كنت من العلم مفتقراً ومن الذنوب مكتثراً رأيتُ ان اجعل اول الكلام في وجود الباري تعالى حسبما امر به غريغوريوس المتكلِّم في اللاهوت وذلك في قوله: اجعل الله بدء امرك وانتهاءه]

« اننا معشر النصارى المؤمنين لمَّا علمنا » انَّ الشيء لا يتعبَّد للشيء ولا يخاف (١ لهُ الَّا لاحدى ثلث خصال وهي: اما مكافأةً على المعروف أُوتي اليه (١ واما طلبَ جزاء فيما يستقبل [ولا هو يقدِّر] واما ان يكون مجبوراً على خدمته (٢. ورأينا الشمس والقمر والكواكب والغيوم وسائر ما في الهواء وجميع ما ينتفع به الانسان من الارض وما عليها ليست محتاجة الى الانسان ولا طالبة منهُ جزاء فيما يستقبل. ولا هو يقدر ان يجبرها على خدمته (٣ فلمَّا لم تكن احدى هذه الثلث الخصال وجب ان يكون لها قاهر يجبرها (٤ على خدمة الانسان فبذلك استدللنا على وجود الباري « القاهر القادر على كلّ شيء »

الباب الثاني

في قدم الباري وحدوثه (واحداثه) للعالم

وقلنا انهُ قديم ازلي محدث للعالم لما نشاهدهُ من ائتلاف المتضادَّات مثل النار والماء والهواء والارض وتأليف الفلك من اجسام مختلفة النَّظم ومختلفة الحركات فدلَّ على ان ناظماً تقدَّم فرتبهُ على ما هو عليه وان سابقاً سبقهُ واتقنهُ واحكم صنعته لان كل صناعة ان لم يتقدَّمها موجدها (٥ والَّا كانت باطلة

الباب الثالث

في ان ليس للباري تعالى جسم (٦

وقلنا انهُ تعالى ليس بجسم لانهُ لو كان لهُ جسم لدخل بعض الحدود عليه التي يُحدُّ بها الجسم من الطول والعرض والعمق وغير ذلك. وايضاً لو كان جسماً لشغل حيزاً وقبل عرضاً. ولو يشغل حيزاً لحدَّهُ المكان

١) وفي احدى النسختين: على معروف أُسدي اليه ٢) ويروى: مخبراً عن خدمته
٣) ويروى: يجزيها على خدمتها لهُ ٤) ويروى: يجزيها
٥) ويروى: موجودها وهو غلط ٦) ويروى: ليس الباري جسماً

الباب الرابع

في ان البارئ تعالى واحد

وقلنا انهُ واحد لا حد يحويه ولا نهاية تحصرهُ لانهُ لو كان اكثر من واحد لوجب ان يكون احدهم معتزلًا عن الآخر. واعتزال الواحد عن الآخر يدلّ على انهُ محصور. وكل محصور محدود. وكل محدود لهُ ابتداء. وما لهُ ابتداء فمخلوق. والمخلوق ليس ازليًا لان الازلي لا يستقيم ان يكون اكثر من واحد

الباب الخامس

في ان البارئ تعالى جوهر بسيط غير مركّب

وقلنا انهُ جوهر لان ليس في الوجود شيء الّا وهو اما جوهر واما عرَض. وذلك انّ اي امر نظرنا فيهِ وجدناهُ اما قائمًا بذاتهِ وهو الجوهر. واما مفتقرًا في وجودهِ الى غيرهِ وهو العرَض. ولا يمكن ان يكون لهذين القسمين قسمٌ ثالث. فاشرفهما القائم بذاتهِ الغير مفتقر في وجوده الى غيره وهو الجوهر. ولمّا كان البارئ تعالى اشرف الموجودات اذ هو سبب سائرها وجب ان يكون اجلّ الامور. واجلّ الامور واشرفها الجوهر. ولهذا قلنا انهُ جوهر لكنهُ ليس كالجواهر المخلوقة كما قلنا انهُ شيء لا كالاشياء المخلوقة ايضًا والّا لزم ان يكون قوامهُ بغيرهِ ومفتقرًا في وجودهِ الى غيره. وهذا فمن القبيح ان يقال عن البارئ تعالى انهُ عرَض ويجب ان يكون جوهرًا بسيطًا « نعم وأبسط البسائط لانهُ الخالق للجواهر البسيطة » وبلا شك انهُ أبسط ممّا هو فاعل لهُ. ولو انهُ كان مركّبًا لكان غيرهُ ركّبهُ. ولا يجوز ان يكون المركّب هو المركّب لذاتهِ

الباب السادس

في ان للعالم ناظمًا اتقنهُ وهو يضبطهُ

ومن هنا لمّا شاهدنا العالم مركّبًا من طبائع مختلفة ومتحدًا من جواهر متباينات. ومنتظمًا من اشياء غير متشابهات. ولاجتماعهِ من اشياء مختلفة يسمّى عالمًا لما فيهِ من التضادّ. ورأينا الفلك مختلف النظم ومختلف الحركات الذي يقال انهُ طبيعة خامسة لا حارّة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة (١ علمنا ان غيرهُ اتقنهُ ونظمهُ وهو يضبطهُ يحول

(١ هذا مبنيّ على اقاويل الاقدمين في طبيعة الافلاك وتركيبها لا يُعوّل عليهِ اليوم

ولا يزول عمّا نظمهُ عليه (١ الى الوقت الذي يشاء مركّبهُ ومؤلفهُ

الباب السابع

في ان العالم قديم لا بقِدَم البارئ تعالى (٢

ولمّا لم نعلم واحدًا قديمًا غير ذي جسم جوهرًا بسيطًا غير مركّب الّا البارئ تعالى علمنا انهُ هو الذي نظّم العالم وانهُ لا يجوز ان يكون المختلف الطبائع المركّب من جواهر متباينة وأنواع مختلفة لا قديمًا بقدم الواحد البسيط النير مركّب الذي ليس هو جسمًا . فمن هذا الدليل ثبت انّ البارئ تعالى [ليس جسمًا] قديمٌ ازلي لا ابتداء لهُ . وان العالم حُدِثَ لهُ ابتداء ومن لهُ ابتداء فلهُ ضرورةً انتهاء

الباب الثامن

ردّ على من يقول من المتفلسفين ان الله والعالم كالنقرة والطين (٣

وهذا يزيل رأي من يقول من المتفلسفين انّ العالم والبارئ تعالى كالنقرة والطين(٤ وانما يتقدمهُ كما زعموا بالرتبة كالنقرة المتقدّمة للطين (٥ . ولو كان البارئ تعالى كذلك وحاشا لملوّم لوجب ان يكون لهُ وللعالم بارئ اوجبهما كالناقر (٦ الموجب للنقرة والطين (٧ . فكان ذلك بلا شك البارئ تعالى الذي لا يجب ان يكون لا قبلهُ ولا معهُ خالق آخر غيره . وقد يعلم كل احد انّ النقرة والطين (٨ مفعولان ولهما فاعل « يتقدّمهما وهو الناقر كذلك العالم مفعول ولهُ فاعل » وهو الباري . ولا يجوز ان يكون الفاعل والمفعول معًا بل الفاعل يتقدم المفعول كالناقر (٩ المتقدم للنقرة والطين (١٠

الباب التاسع

في ان ليس الحدوث بعد الامساك عند البارئ عرَض

ثم انهم قالوا اعني المتفلسفين: انّ الحدوث بعد الامساك عرَض . ولذلك لم يوجبوا ان يكون البارئ تعالى أحدث العالم بعد ان كان ممسكًا عنهُ . لانّ ذلك « كما زعموا » لا يخلو من احدى ثلث خصال وهي امّا ان يكون مانعٌ كان يمنعهُ من حدوثهِ فلمّا زال المانع احدثهُ . او تكون حاجة دعتهُ اليه فاحدثهُ لحاجته اليه . او انهُ كان مضطرًّا

---

١) ويروى: اليه ٢) ويروى: في انّ ليس العالم قديمًا بقدم البارئ
٣) و٤ و٥ و٧ و٨ و١٠ ويُروى: الطين
٦) ويروى: كالنقرة ٩) ويروى: كالنقر

اضطرّهُ غيرهُ فاحدثهُ اضطراراً. فاذا كان العقل الذي هو مثل الحاكم والمعيار والعالم نفسهُ الموجب لاجتماعهِ من اشياء متضادة يوجبان على نفسهِ انهُ محدث ويحققان ذلك ويبرهنان عنهُ ببراهين عقليّة بقي ان نورد ما يبطل قول من يزعم انّ الحدوث بعد الامساك عرَض عند الباري. ونقول انّ الحدوث بعد الامساك عرض عندنا نحن المخلوقين فاما عند الاوّل الواحد الغير ذي جسم والغير مركّب البسيط فحكمةٌ لانهُ تعالى حكيم مريد فاوجدهُ بحكمتهِ وَقتَ أراد لما أراد وبغيتهِ وقتَ يريد كما يريد من حيث لا يدخل عليهِ عرَض. لانّ العرَض انما يدخل على الاجسام الكثيفة فاما اللطائف(١ فما يدخل عليها عرَض لا ثابت ولا زائل. لانّ العرَض عرَضان عرَض ثابت وهو كسواد الغراب وبياض الثلج وقطسة الاقطس وزرقة الازرق. وعرَض زائل وهو صفرة الوجه وحمرة الخجل والقعود والقيام والنوم واليقظة وما يجري مجراه. فالباري سبحانهُ تعالى منزّهٌ عن الاعراض الثابتة والزائلة والكيفيّات والكمّيات لانّ كل هذه تلازم الجواهر الكثيفة. وقد نرى الجواهر غير داخل عليها عرَض فكيف يقال انّ خالق الجواهر البسيطة والكثيفة والمركّبة يدخل عليهِ عرض حاشا لعزّتهِ وجلالتهِ من هذا القول

الباب العاشر

فيما يؤول اليهِ قول من يزعم ان الباري تعالى لا يحدث شيئاً بعد ان كان ممسكاً عنهُ

واما ما يؤول اليهِ قول من يزعم انّ الباري تعالى لا يحدث شيئاً بعد ان كان ممسكاً عنهُ فهو يوجب انّ الباري لم يخلق العالم ولا آدم ولا ارسل طوفاناً ولا احدر ناراً على سادوم وعامورة ولا انقذ موسى النبي ولا انقذ بني اسرائيل من عبودية المصريين ولا بعث كلمتهُ السيد المسيح ولا ارسل نبيّاً ولا يرحم ولا يعاقب ولا يمطر ولا يقحط ولا يرخص ولا يغلي ولا ينصر ولا يخذل ولا يحيي ولا يميت ولا ينشر ولا يحشر ولا لهُ تأثير في العالم لانّ هذا وما شاكلهُ حدوث بعد امساك. واذا كان ذلك كذلك والعياذ بالله فلا حاجة الى تعبّدٍ ولا الى صوم ولا الى صلاة ولا الى صدقة ولا الى رحمة ولا الى عدل ولا الى حفظ جناح لانّ هذا كلهُ وما شاكلهُ من الصلاح انّما يُطلب بهِ من الله تعالى الحدوث بعد الامساك مثل العفو بعد السخط فاذا لم يكن لا عفو ولا سخط فقد زال

١) هذا لا يصحُّ في كلّ الجواهر اللطيفة كالنفس والأرواح المجرّدة وانما يصحّ فيهِ سبحانهُ تعالى

الخوف والرجاء. ومع هذا فالفلاسفة اجمع يقولون انَّ نهاية الفلسفة التشبُّه بالاله حسب طاقة المخلوق. فاذا كان الاله لا يرحم ولا يجود ولا يصفح ولا يحنّ. اذ ذاك رمى شاكلهُ حدوثٌ بعد امساك فيمَ يتشبَّه المخلوق بالاله. فاماً نحن النصارى المؤمنين فنثق ونؤمن بالله ونعتقد انهُ صانع الكل وبارئه والَّا فكيف كان يتمّ وليس لهُ بجوهر ولا ناظم. ثمَّ نعتقد انَّ هنالك سياسة وتدبير الروح ليجمع الكلّ ويربطهُ لانهُ يلزم ان يكون صانع الاشياء هو ايضاً يدبرها والَّا فلو جرى الامر في السياسة على حسب الاتفاق لقد كان الكل اشبه بسفينةٍ لا مدبّر لها تأخذها الرياح الى حيث اتجهت وتنكسر وتتهدم سريعاً لما فيها من قلة النظام والترتيب ومعاذ الله من هذا القول

الباب الحادي عشر

في رأي الفلاسفة في زهدهم في امور الدنيا

فان قال قائل انَّ الفلاسفة الذين كانوا يرون هذا الرأي قد كانوا زهَّادًا ويفعلون الصلاح ويعفُّون عن المحارم. قلتُ ان ذلك اعني فعلهم الجميل لاحدى ثلث حالات وهي: إمَّا ان يكونوا لا يرون هذا الرأي الذي يُنسب اليهم. او ان كان هذا رأيهم فكانوا يزهدون في امور الدنيا ليريحوا قلوبهم من الاهتمام باسبابها ولانَّ فعل الصلاح واجب وفرض على كل بشر اذ مُيِّز عن غيرهِ من الحيوان بالعقل والنطق. او انهم كانوا يطلبون بذلك المديح من الناس

الباب الثاني عشر

ردّ على المتفلسفين الذين يقولون ان الصفات للباريْ كيفيَّات ولذلك لا يرون ان يصفوه بالحي الناطق القادر وما شاكل ذلك ممَّا وصف بهِ ذاتهُ على السن انبيائهِ

فاماً من يقول من المتفلسفين انَّا اذ وصفنا الباريْ تعالى بالحي الناطق السميع البصير القادر الجواد الكريم وما شاكل كيَّفناهُ ودخل في الكيفيَّة والكميَّة فلم يعلموا انَّ الصفات كيفيَّات للمخلوقين ذوي الاجسام والكميَّة الداخل عليها الحدود القابلة الاعراض. فاماً الحدود القابلة للخالق فليست كيفيَّات بل اشارات لهُ الى الوجود ودلالات انهُ الاله الواحد المعبود وانما وصف الباريْ تعالى لاهوتهُ في كتبهِ المنزلة منهُ على السن انبيائهِ ورسلهِ بهذه الصفات من حيث نحن «ومن حيث فهمنا» لا من حيث علوهِ

وسموه ليوهل بذلك المعرفة بجلاله الينا نحن الدنيين لانّا لا نعلم قادرًا الّا ملكًا ولا ذا يد مبسوطة الّا جوادًا ولا رحمانًا الّا رحيمًا فتنازل البارئ جل قدرته لحقارتنا وسمّى لاهوتهُ بهذه الاسماء من حيث نحن لنفهم ذلك ونعرفهُ مما قد الفناهُ كمثل الناطق الفصيح الذي اذا أراد يخاطب اخرس اومى اليهِ بيدهِ واشار نحوهُ بحركاتهِ من حيث الخاطَب لا من حيث الخاطِب. وايضاً لما ازمعهُ من ظهور كلمتهِ اي نطقهُ المولود بلا حدَث كولادةِ قرص الشمس للضوء وكولادة العقل للنطق وكولادة النار للحرارة من غير انفصال بين الوالد والمولود ولا افتراق لكي الذي يشاهد ذلك او يسمع بهِ اعني الحادّ نطقهُ يفسرّ ولا ينكرهُ ولا ينفر منهُ اذ قد تقدّم الإنذار بهِ من البارئ تعالى عزّ وجل في كتبهِ المنزلة منهُ على السن انبيائهِ ورسلهِ حيث وصف لاهوتهُ بصفات الخلوقين ولكي يشبعوا من وصفهِ عزّ وجلّ بما وصف بهِ ومن حيث ارادوا ان ينزّهوهُ عن الصفات حادوا عن السبيل المستقيم. فاما نحن فنقول ان الاتفاق بين البارئ الخالق جلّ ذكرهُ وخلقهِ فيما يوصف بهِ انما هو الاشتراك في الاسماء فقط فاما المعاني فلا شبيه بينهُ وبينهم

الباب الثالث عشر

في الزمان والمكان

واذ قد تكلّمنا في وجود البارئ تعالى تقدّست اسماؤهُ وجلّت آلاؤهُ بما لا تفنيهِ العقول ولا يبعده من هو ذو لبّ رزينًا انهُ قديم واحد غير ذي جسم جوهر بسيط وانهُ محدث للعالم غير داخل عليهِ عرَض وانهُ متنزّه عن الكيفيّات والكميّات والآنيّات وانّ حدوث العالم واجبٌ اذ وجب لاختلاف طبائعهِ وتركيبهِ انهُ مصنوع وان لهُ ابتداء وانّ ما لهُ ابتداء فبلا محالة لهُ انتهاء. وان ليس الحدوث بعد الامساك عرَض عند البارئ كما هو عندنا نحن المخلوقين كما ان الامر لمن دون الانسان امر ولمن فوقهُ سؤال

بقي ان نورد في الزمان والمكان كلاماً يسيرًا مقتصًا ان شاء الله تعالى لانهُ قد قال بعض المتكلّمين: كثرة الكلام حرب للسامع. ونقول انّ الزمان قد يقال على انحاء كثيرة: من ذلك الزمان زمان الخريف وزمان الشتاء وزمان الربيع وزمان الصيف واذا غاب واحدٌ عن واحد أيامًا قال لهُ: «لي زمان ما رأيتك» و«ما اغيب زمانًا طويلًا». وزمان

طيب وزمان سوء». فالزمان ليس لهُ جوهر لطيف ولا كثيف يقبل حدًّا بل هو تعاقب الليل والنهار ومرّ الأيام والشهور وهذا هو الزمان فالطويل ما كثرت اعوامهُ والقصير ما قلَّت ايامهُ وليس الزمان شيء آخر الَّا ما ذكرناه. فامَّا المكان فالسماء والارض وما فوقهما وما تحتهما

الباب الرابع عشر

جواب لمن يسأل اين كان مكوّن المكان قبل المكان

فان قال قائل فاذا كنتَ اوجبتَ من العقل الذي هو كالمحكّ والمعيار ومن العالم نفسهِ لتركيبهِ من طبائع مختلفة وتأليفهِ من جواهر متباينة انهُ محدث فاين يكون مكوّن المكان قبل المكان. فنقول انهُ وجب من دليل العقل ومن العالم نفسهِ انهُ مركَّب فكل مركَّب لهُ مركِّب ولا يجوز ان يكون المركَّب والمركِّب معاً بل المركِّب يتقدم المركَّب لا بسنين ولا بشهور او بجُمَع وايَّام الذي هو الزمان بل ابتدأ ابتداء الزمان مع ابتداء المكان وكما وجب من دليل العقل ايضاً انَّ الباري تعالى واحد قديم غير ذي جسم وغير مركَّب ولا مؤلف وانهُ جوهر بسيط وابسط البسائط. فمن ههنا وجب ان يكون الباري تعالى غير محتاج الى مكان لانَّ حاجة التكوُّن في المكان عجز والباري تعالى ليس عاجز وانما المحتاج الى المكان الجوهر الكثيف والجسم المركَّب المؤلف من طبائع مختلفة وجواهر متباينة. بل نقول ان المكان في قدرة الباري تعالى ولو كان الباري محويًا من المكان لدخل عليهِ بعض الحدود لانَّ الخلق اللطيف مثل الملائكة والجنّ والانفس تُحدّ بحدَّين حدّ الابتداء وحدّ المكان لانهُ لا يكون ملاك ولا شيطان ولا نفس في مكانين في وقت واحد معاً بل ينتقل كل واحد من هؤلاء من مكان الى غيرهِ. واما الخلق الكثيف فيُحدُّ بثلاثة حدود حدّ الابتداء وحدّ المكان وحدّ الحلية. والباري تعالى خارج عن سائر الحدود التي تُحدّ بها اللطائف والكثائف ولذلك قلنا انهُ غير محتاج الى مكان بل المكان في قدرتهِ

(ستأتي البقيَّة)